منهج الإمام الشعراوي في تفسير الآيات الكونية & الأرض أنموذجًا – دراسة مقارنة

محمود محمد محفوظ الزهري (*)

مدخل

يحتوي القرآن الكريم على أكثر مِنْ ألف آية صريحة تتحدث عن الكون، ومكوناته وظواهره؛ بالإضافة إلى آيات أخرى كثيرة تقترب دلالاتها من الصراحة، وهذه الآيات لم ترد مِن قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان، وذلك لأن الكشف العلمي قد تُرك لاجتهاد الإنسان وتحصيله عبر فترات زمنية طويلة، نظرًا لمحدودية القدرات الإنسانية، وللطبيعة التراكمية للمعارف الكونية، ويؤكد ذلك أنَّ تلك الآيات الكونية قد جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق، وعلى وحدانية الخالق العظيم ﷻ، وعلى أنَّ هذا الخالق المبدع جل وعلا قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة هذا الخلق مِنْ جديد، وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير كما يحتاج غيرها مِن آيات هذا الذكر الحكيم، وهي بحكم طبيعتها لا يمكن أنْ تُفهم فهمًا دقيقًا في إطار اللغة وحدها – على أهمية ذلك - ، ومِن هنا كان لِزامًا علينا أنْ نوظف المعارف الكونية النافعة والمتاحة في تفسير تلك الآيات الكونية الواردة في كتاب الله تعالى .

ولما كانت المعارف الكونية في تطور مستمر وجب على أمة الإسلام أنْ ينفر منها في كل جيل نفرٌ مِن علماء المسلمين الذين يتزودون بالأدوات اللازمة، للتعرض لتفسير كتاب الله تعالى، مِن مثل: الإلمام التام باللغة العربية وعلومها المختلفة، وبأصول الدين، وبأسباب النزول، وبالناسخ والمنسوخ، وبالمأثور مِن التفسير، وبجهود السابقين مِن كبار المفسرين، وبالقدر اللازم مِن العلوم المتاحة عن الكون، ومكوناته، وغير ذلك مما يحتاجه كل مَنْ يتشرف بالقيام بمثل هذه المهمة العظيمة (١) .

ولقد كان لتفسير الإمام الشعراوي حظ وافر مِنْ هذه العلوم المختلفة، فتفسيره يُعد موسوعيًّا، لِما فيه مِن الإحاطة والشمولية، وسيُعنى هذا الباب مِن الدراسة بإذن الله ببيان الجانب العلمي عند الإمام الشعراوي مِن خلال عرض تفسيره – رحمه الله – لبعض الآيات الكونية في القرآن الكريم، وتوظيفه لمعطيات العلم الحديث في

(*) هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم عند الإمام محمد متولي الشعراوي – دراسة موضوعية] تحت إشراف أ.د. محمد محمد عثمان يوسف – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) مِن آيات الإعجاز العلمي " السماء في القرآن الكريم" – د/زغلول النجار – الناشر: دار المعرفة (بيروت ، لبنان) – الطبعة الرابعة (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)– ص٣٠ : ٣١ .

بيان عظمة النص القرآني، وقبل ذلك يورد الباحث معنى الآيات الكونية، وأهمية دراستها، وأسلوب عرضها في القرآن الكريم .

أولًا: تعريف الآيات الكونية:-

- **الآية في اللغة:**

الآية: العلامة والجمع (آيٌ) وَ (آيَايٌ) وَ (آيَاتٌ)، وخرج القوم (بآيتهم) أي بجماعتهم ومعنى الآية من كتاب الله جماعة حروف[1]، وتُطلق في اللغة بإطلاقات:

- **أولها:** المعجزة، ومنه قوله ﷻ: ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾[2]، أي معجزة واضحة .
- **ثانيها:** العلامة، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[3]، أي علامة ملكه .
- **ثالثها:** العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾[4]،أي عبرة لمن يعتبر .
- **رابعها:** الأمر العجيب، ومنه قوله جل وعلا: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[5] .
- **خامسها:** الجماعة، ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم، والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئًا.
- **سادسها:** البرهان والدليل نحو قوله جل ذكره: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

---

(١) معجم مقاييس اللغة – لابن فارس – ج١ ص١٦٨ ، مختار الصحاح – لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ) – تحقيق: يوسف الشيخ محمد – الناشر: المكتبة العصرية (بيروت ، صيدا) – الطبعة الخامسة (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) – ص٢٧.

(٢) سورة البقرة ، من آية رقم : ٢١١ .

(٣) سورة البقرة ، من آية رقم : ٢٤٨ .

(٤) وردت ٢٠ مرة في كتاب الله تعالى في ٢٠ آية كريمة .

(٥) سورة المؤمنون ، من آية رقم : ٥٠ .

لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١]، والمعنى أنَّ من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال خلق عوالم السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، تلك كلها إطلاقات لغوية وقد يستلزم بعضها بعضًا [٢] .

يقول الإمام الشعراوي: " والآيات جمع آية، وهي الأمر العجيب، والآيات تُطلق ثلاث إطلاقات:

- **الآيات الكونية:** التي تُثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[٣]، للنظر والاعتبار، وهي حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها؛ وهي تلفِتُك إلى أن مَنْ خلقها لابُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة، فهي تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه، ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبّدل، كما قال الحق ﷻ: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[٤]، فمهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صُنع الخالق وضرورة الإيمان به، فمِنها نعلم أن وراء الكون البديع خالقًا وقوة تمده وتديره، فَمنْ يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائي إذا أنقطع تُطْفأ هذه اللمبة، فمَنْ خلق الشمس من عدم، وأمدّها بالطاقة من عدم ؟ فالإنسان طرأ على كوْن مُعَدٍّ لاستقباله، وعلى وجود لا تتناوله قدرته، ولا سلطانَ له عليه، فهو لا يتناول الشمس مثلًا ليُوقِدها ولم يدَّعِ هذه الآيات الكونية أحد، أَلاَ يدلّ ذلك على الخالق ﷻ، ويُوجِب علينا الإيمان به ؟
- **ومن معاني الآية: المعجزة،** وهي الأمر العجيب الخارق للعادة، وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء لتكون حُجّة لهم، ودليلًا على صدق ما جاءوا به من عند الله، ولإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، وهي معجزات؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس، فكل شيء له طبيعة، فإذا خرج عن طبيعته؛ فهذا يَستدعى الانتباه .
- **وآيات قرآنية:** تحمل الأحكام والتحدي للمشركين أن يأتوا بمثلها، فهي مُحكم منهج الله في الأرض، وفي القرآن هذا كله، وهذه الآيات مترتبة بعضها على بعض، فالآيات الكونية العقدية التي تشاهدها في الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر تسأل: مَنْ هذه الإله الخالق فيأتي

---

(٦) سورة الروم ، آية رقم : ٢٢ .
(١) مناهل العرفان في علوم القرآن – للزرقاني – ج١ ص٣٣٩ .
(٢) سورة فصلت ، من آية رقم : ٣٧ .
(٣) سورة الفتح ، من آية رقم : ٢٣ .

دور الرسول ﷺ الذي يُبيِّن لك ويحلّ لك هذا اللغز، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صِدْقه في البلاغ عن الله هي المعجزة، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول، فقال: ومن آياته كذا وكذا، فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التي جاءتْ بها معجزة النبي ﷺ [1] .

- **الآية الكونية في الاصطلاح:**

الآيات الكونية: هي الآيات المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كوّنه الله تعالى فكان، وذلك: السماوات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد، وخلق الإنسان، وآيات الله ﷻ في الآفاق، وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات [2] .

ثانيًا: أهمية دراسة الآيات الكونية في القرآن الكريم:-

للآيات الكونية مكانة خاصة في الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر، فهي مدار إثبات وجود الله الخالق سبحانه ووحدانيته، ومظهر كثير مِن صفاته العلية التي لا نهاية لها ولا حدود لكمالها، ويتضح مِن النظر والتدبر في الآيات القرآنية التي وردت بها الإشارات العلمية أنها تختم بهذه الجمل الهادفة نحو قوله ﷻ: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[3]، وقوله أيضًا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[4]، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] .

فهذه الجمل القصيرة توضح أهداف الإشارات العلمية القرآنية، وأنَّ الحقيقة العلمية التي تُشير إليها الآية ليست مقصودة لذاتها، ولكن لهدف أسمى هو الايمان بالله ووحدانيته وقدرته، والتعقل في فهم وجود الانسان في الكون، والتعمق في

---

(١) يُنظر: تفسير الشعراوي : ج٨ ص٤٧٥٥ ، ج٩ ص٥٦٤٤ ، ج١٠ ص٥٧٩٧ ، ج١٢ ص ٧١١١ ، ج١٣ ص ٨٢١٠ ، ج١٦ ص١٠٠٤٦، ج١٦ ص١٠٢٦٩ ، ج١٧ ص١٠٥٣٩ ، ج١٧ ص١٠٨٥٠ .

(٢) الإسلام في عصر العلم – للدكتور/ محمد أحمد الغمراوي – ص٢٨٩ بتصرف يسير .

(٣) وردت مرتان في كتاب الله تعالى ، إحداهما في سورة الأعراف آية رقم: ١٨٥ ، وسورة المرسلات ، آية رقم : ٥٠ .

(٤) وردت ثلاث مرات في كتاب الله تعالى ، في سورة الرعد آية رقم: ٤ ، وسورة النحل ، آية رقم : ١٢ ، سورة الروم ، آية رقم : ٢٤ ، وجميعها آيات كونية

(٥) وردت أربع مرات في كتاب الله تعالى ، في سورة الرعد آية رقم: ٣ ، وسورة الروم ، آية رقم : ٢١ ، سورة الزمر ، آية رقم : ٤٢ ، سورة الجاثية ، آية رقم : ١٣ .

العلوم الكونية وتعقلها والتفكر فيها [١]، يقول الإمام الشعراوي: " وهكذا رأينا أنَّ الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي مناط الاستدلال العقلي على وجود الإله، فتلك الآيات الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله ﷻ؛ فساعة ترى الكون منتظمًا بتلك الدقة المتناهية؛ لا بُدَّ أن تفكر في ضرورة وجود خالق لهذا الكون " [٢] .

ثالثًا: أسلوب الآيات الكونية في القرآن الكريم:

عَرَضَ القرآن الكريم الكثير مِن الحقائق الكونية، ولكنه عندما يعرض أي قضية مِن قضايا الكون العلمية لا يعرضها بأساليب البشر باستعمال المقدمات والدلائل والمعادلات واستنباط النتائج، وإنما يقدمها بالإشارة أو الرمز أو المجاز أو الاستعارة أو العبارات التي تُومض في العقل بنور روحي باهر، إنه سبحانه ينزل آيات قد لا يدرك معناها أو يُفهم حقائقها وأسرارها في وقتها كل المعاصرين لنزولها، لأن العلم بقوانين الكون كان محدود الآفاق وقتئذ، ولكنه سبحانه يعلم أنَّ المستقبل سوف يأتي بشرح لهذه الآيات في ضوء علوم عصرها[٣] .

يقول الإمام الشعراوي: " ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلَّفة برسالة النبي محمد ﷺ لم يشأ أنْ يجعل نواميسه في الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها، وخاصة أنَّ الكتاب واجه أمّة أمّيَّة؛ ليست لها ثقافة، وهب أنَّه واجه العالم المعاصر، إنَّ هناك قضايا في الكون لا يعلمها العالم المعاصر، فلو أنَّ القرآن تعرض لها بصراحة لكانت سببًا من الأسباب التي تصرف الناس عن الكتاب، والقرآن جاء كتاب منهج، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج، لكنه ترك في الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله، وكل يوم يكتشف العقل البشري أشياء، وهذا الاكتشاف لا يأتي من فراغ، بل يأتي من أشياء موجودة " [٤]، فلو أنَّ الحق ﷻ أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صَدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات الكونية [٥] .

---

(٦) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق - د/كارم السيد غنيم - ص٢٤١ : ٢٥١ باختصار ، **وينظر أيضًا:** مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة – د/زغلول النجار – ص١٥٣ : ١٥٧ .

(١) تفسير الشعراوي – ج١٠ ص٦١١٢ ، ج١١ ص٦٨٥٨ .

(٢) القرآن وإعجازه العلمي – لمحمد إسماعيل إبراهيم – ص٥٤ .

(٣) تفسير الشعراوي – ج٤ ص٢٣٣٥ .

(٤) نفس المرجع السابق – ج١٣ ص٨١٥١ .

ويقول – رحمه الله – في موضع آخر: " فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية، ذلك أنَّ الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس - على عهد نزول القرآن – ذلك، وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات، قال ﷻ: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أدخل كُلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك " [2].

ومِن أساليب القرآن الكريم في عرض الآيات الكونية: أنَّه يستدل بالآية الكونية الكريمة المُشاهدة على أمر غيبي، يقول الإمام الشعراوي في معرض تفسيره لقول الحق تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [3]: "ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية، وهذه سِمَة من سمات أسلوب القرآن الكريم، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية، وكأنه يقول: لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة " [4]، ويقول في موضع آخر: " فكما أنَّ الآيات الكونية التي أخبر بها الحق تبارك وتعالى حقيقة واقعة، وتأكدتَ أنت من صِدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغي أن تصدقها، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلًا على صِدْق ما غاب عنك " [5].

ومِن أساليب عرض الآيات الكونية أنها لا تُذكر مرة واحدة، أو في آية واحدة مِن القرآن الكريم بل تجدها منتشرة في ثنايا الكتاب العزيز، فإذا جُمعت هذه المعلومة إلى غيرها في موضوع واحد فإنَّك ستخرج بقدر مذهل مِن العلم عن هذه الحقيقة، بحيث تجد في كل مقطع وكل وصف شيئًا جديدًا يُضاف إلى سابقه [6].

---

(١) سورة النحل ، آية رقم: ٨ .
(٢) تفسير الشعراوي – ج١٢ ص٧٥٤٣ .
(٣) سورة النمل ، آية رقم: ٨٦ .
(٤) نفس المرجع السابق – ج١٧ ص١٠٨٥٤ .
(٥) تفسير الشعراوي – ج١٧ ص١٠٨٦٠ .
(٦) القرآن والطب الحديث – د/أحمد شوقي الفنجري – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – طبعة سنة (٢٠٠٠م) ص ١٥ .

والقرآن كمعجزة هو أيضًا معجزة للجميع، ولا بد أنْ تكون هناك معجزة لكل جيل، ولكل عصر، ويأتي الإعجاز في الآيات الكونية التي لو لم نعرفها فلن يحدث شيء بالنسبة للأحكام، مثال ذلك: لو لم نعرف أنَّ الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل؟ لا فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم، لكن الحق ﷻ يواجه العقول بما يُمكن أن تطيقه، فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية في الكون، فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها [١]، ومهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صُنع الخالق وضرورة الإيمان به، فمنها نعلم أن وراء الكون البديع خالقًا وقوة تمده وتديره [٢]، وهذه الآيات الكونية كثيرة ومتعددة، وسيكون الحديث في هذه المبحث بإذن الله عن تفسير الإمام الشعراوي للآيات الكونية التي تتحدث عن الأرض .

وقد جاء لفظ الأرض في الأسلوب القرآني لبيان وعرض كثير من القضايا، فقد تعدد ورود ذكرها في كتاب الله تعالى، وفيما يلي الحديث عن الأرض كآية كونية، وتفسير الإمام الشعراوي لهذه الآيات الكونية التي تحدثت عنها، واقتضت طبيعة المبحث تقسيمه إلى مطلبين:

- المطلب الأول : **آيات تتحدث عن خلق الأرض وطبيعتها .**
- المطلب الثاني: **آيات تتحدث عن أحوال الأرض وصفاتها .**

المطلب الأول

آيات تتحدث عن خلق الأرض وطبيعتها

عظَّم الله مِن شأن الأرض في كتابه الكريم، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها، ونوه بذكرها أكثر من شأن الشمس والقمر والكواكب، وقرن خلقها مع خلق السماوات في عدة آيات من القرآن، وأخبر أنه خلقها وما فيها في أربعة أيام، وأنه خلق السماوات وما فيهن في يومين وذلك يدل على عظم الأرض [٣]، والحديث في هذا المطلب عن الآيات الكونية الكريمة التي تحدثت عن خلق الأرض، ومن ذلك ما يلي:

- **آيات الفتق والرتق:**

كثُرت الآيات الكريمة التي ورد فيها الحديث عن نشأة الكون، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا

---

(٧) تفسير الشعراوي – ج٤ ص٢٢٤٦ .

(١) تفسير الشعراوي – ج١٦ ص ١٠٠٤٦ .

(٢) ذيل الصواعق لمحو الأباطيل والمخارق – لحمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري (ت ١٤١٣هـ) – بدون دار للنشر – طبعة (١٣٩٠هـ) – ص١٧ .

مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وفيما يلي ذكر تفسير الشيخ الشعراوي لهذه الآية الكونية الكريمة وأقوال المفسرين فيها، وربط ذلك بالمكتشفات العلمية الحديثة حول نشأة الكون .

يقول الإمام **الشعراوي:** " يعني: أعُميتْ أبصارهم، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله، لكن كيف يقول الحق سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ والحديث هنا عن السماء والأرض، وقد قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾[2]؟ فهذه مسألة لم يشهدها أحد، ولم يُخبرهم أحد بها، فكيف يروْنَها ؟ .

يُجيب الإمام **الشعراوي** قائلًا: سبق أن تكلمنا عن الرؤية في القرآن الكريم، وأنَّ لها استعمالات مختلفة: فتارة تأتي بمعنى: نظر أي: بصرية، وتأتي بمعنى: علم، ففي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾[3]، والنبي ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها؛ لأنه وُلِدَ في نفس عامها، فالمعنى: ألم تعلم، فالله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ أنت صحيح لم ترهَا بعينيك، لكن ربك أخبرك بها، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك .

لكن، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم في مسألة خَلْق السماوات والأرض؟ قالوا: لأن الإنسان حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ: من أين جاء هذا الكون العجيب؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشيء العجيب، ويسأل عنه، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به، فما بالُكَ إنْ كان شيئًا نافعًا له ؟

إذن: كان عليهم أن ينظروا: مَنِ الذي نبَّأَ رسول الله ﷺ بهذه المسألة؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها، وقد جاءهم رسول الله ﷺ بمعجزة تُثبِت صدقه في البلاغ عن الله، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه .

والرَّتْق: الشيء الملتحم الملتصق، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي: فَصلْنَاهما وأزَحْنَا هذا الالتحام، والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون، وهذا أمر قابل للخلاف، فكلُّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

---

(٣) سورة الأنبياء ، آية رقم : ٣٠ .
(١) سورة الكهف، آية رقم : ٥١ .
(٢) سورة الفيل، آية رقم : ١ .

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفتْق، فمنهم مَنْ قال بالرأي الذي قالتْه التوراة، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة، وحدث لها كذا وكذا، وتكوَّنت السماء والأرض، ومنهم مَنْ رأى أنَّ المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء، كل على حِدَة، وأنهما لم يكونا أبدًا ملتحمتين، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، وفي موضع آخر قال: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾[2] .

فالمراد - إذن - أنَّ الأرض وحدها كانت رَتْقًا، فتفجرت بالنبات، وأنَّ السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر، فشقَّ الله السماء بالمطر، وشَقّ الأرض بالنبات الذي يصدعها، قال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾[3]، وقال عن السماء: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾[4]، على اعتبار أنَّ السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك، فيكون السحاب من السماء [5] .

وهكذا لخَّصَ الإمام **الشعراوي** أقوال المفسرين في الآية الكريمة، ثم قال رحمه الله : " نفهم من هذا الرأي أنَّ الفتْق ليس فتْقَ السماء عن الأرض، إنما فتق كل منهما على حدة، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطي حكمًا جديدًا، واجتهاد على قَدْر عطـــاء العقول قد تُثبته الأيام، وقد تأتي بشيء آخر، المهـم أن القولَيْن لا يمنع
أحدُهما الآخر" [6] .

أقوال المفسرين في الفتق والرتق:

تباينت أقوال المفسرين قديمًا وحديثًا في المراد بقوله تعالى عن خلق السماوات والأرض: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾، ومحل الخلاف بينهم هو المراد بالرؤية في الآية الكريمة هل هي على الحقيقة أم للعلم ؟ فمن المفسرين من يرى أن المراد بالرؤية حقيقة النظر كان تفسيره للآية على معان:-

---

(١) سورة عبس ، الآيات من ٢٤ حتى ٢٨ .
(٢) سورة القمر ، الآيتان ١١ : ١٢ .
(٣) سورة الطارق ، الآيتان ١١ : ١٢ .
(٤) سورة الفرقان ، من آية رقم : ٢٥ .
(٥) تفسير الشعراوي – ج١٥ ص٩٥١٥ : ٩٥٢٥ .
(٦) تفسير الشعراوي – ج١٥ ص ٩٥٢٥ .

قال بعض المفسرين المعنى: أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقًا، كل على حِدَة، ففتق الله سبحانه السماء بالمطر والأرض بالنبات، وهو قول أكثر المفسرين كالإمام الطبري[١] (ت ٣١٠هـ)، والإمام ابن عطية [٢] (ت ٥٤٢هـ)، والإمام القرطبي[٣] (ت ٦٧١هـ) ، والإمام الشنقيطي[٤] (ت ١٣٩٣هـ) .

.

يقول الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أولم ير الذين كفروا أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث، والأرض بالنبات وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لدلالة قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [٥] على ذلك، وأنه جل ثناؤه لم يُعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه " [٦]

.

ويقول الإمام الشنقيطي (١٣٩٣هـ) بعد أنْ عرض أقوال أهل العلم في معنى الآية الكريمة: " فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أنَّ القول الثالث منها - وهو كونهما كانتا رتقا بمعنى أنَّ السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئا، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبات - قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى " [٧] .

أما مَنْ قال بأنَّ المراد من الرؤية في هذه الآية الكونية الكريمة: العلمية أو القلبية فقد فسرها على معانٍ أيضًا .

قال بعض المفسرين المعنى: كانت السماوات والأرض رتقا ملتصقتين ففتقهما الله تعالى بأن فصل بينهما، وممن قال بهذا المعنى: الإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ)، الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، والإمام الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) .

يقول الإمام الرازي: " لقائل أن يقول: المراد من الرؤيةِ في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾، إما الرؤية، وإما العلم والأول مُشْكِلٌ، فالمراد من الرؤيةِ هو العلمُ " [٨] .

ويقول الإمام الشوكاني: " والرؤية هي القلبية، أي: لم يتفكروا ولم يعلموا أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقا، يعني: أنهما كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله

---

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – للطبري – ج١٦ ص٢٥٦ .
(٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – لابن عطية – ج٤ ص٨٠ .
(٩) الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي – ج١١ ص٢٨٤ .
(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – للشنقيطي – ج٤ ص١٤١ .
(٦) سورة الأنبياء ، من آية رقم : ٣٠ .
(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – للطبري – ج١٦ ص٢٥٦ .
(٨) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – للشنقيطي – ج٤ ص١٤١ .
(١) مفاتيح الغيب – للرازي – ج٢٢ ص١٣٦ .

بينهما " [١]، وقال الإمام الألوسي : " وجوز أن تكون الرؤية بصرية وجعلها علمية أولى " [٢] .

وهناك من المفسرين المعاصرين من قال بهذا القول إلا أنهم فسروا السماوات بالمجموعة الشمسية، أي أنَّ الأرض كانت جزء من الشمس هي وباقي الكواكب، ثم انفصت عنها، وممن قال بهذا المعنى: الإمام القاسمي[٣] (ت ١٣٣٢هـ)، والشيخ طنطاوي جوهري[٤] (ت ١٣٥٨هـ)، والشيخ المراغي[٥] (ت (ت ١٣٧١هـ) .

يقول الإمام المراغي: " فتدل الآية على أنَّ الأرض خُلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه، أي أنها إحدى هذه السيارات، كلها مخلوقة من مادة واحدة، وهي مادة الشمس " [٦] .

ومن المفسرين من جمع بين كون الرؤية بصرية أو علمية كالإمامين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، والإمام ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، يقول الإمام ابن كثير: " كان الجميع متصلا بعضُهُ ببعضٍ متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا، والأرض سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض " [٧] .

رأي العلم الحديث في نشأة الأرض:

اختلفت الآراء العلمية منذ القديم حول كيفية نشأة الأرض وتكوينها، وما زالت محاولات استقصاء ذلك من الأمور التي تشغل تفكير العلماء على مر العصور، وقد وُضِعت فرضيات عديدة لتفسير نشأة الأرض وباقي المجموعة الشمسية، من هذه الفرضيات: ما اعتمد فكرة الأصل الواحد للمجموعة الشمسية،

---

(٢) فتح القدير – لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ) – اعتنى به وراجه أصوله: يوسف الغُوش – الناشر: دار المعرفة ، بيروت / لبنان – الطبعة الرابعة (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) – ص ٩٣٤ .

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – للإمام الألوسي – ج٩ ص٣٥ .

(١) محاسن التأويل – لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) – تحقيق: محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت/ لبنان – الطبعة الأولى (١٤١٨هـ) – ج٧ ص١٩١ .

(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم – لطنطاوي جوهري – ج١٠ ص١٩٩ .

(٣) تفسير المراغي – لأحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ) – الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحنفي ، القاهرة – الطبعة الأولى (١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦م) – ج١٧ ص٢٤ .

(٤) محاسن التأويل – للقاسمي – ج٧ ص١٩١ .

ويعلق الإمام الشعراوي قائلا: والقياس العقلي يقتضي أن نقول: إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها، فمن الطبيعي أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهي بالاستطراق الحراري، إذن: فهذه نظرية غير سليمة . **يُنظر:** تفسير الشعراوي – ج١٥ ص٩٥٢٣ .

(٥) تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – ج٥ ص٢٩٧ .

والتي تعلل انفصال الأرض وغيرها من السيَّارات عن الشمس نتيجة لاصطدام الشمس بكوكب خارجي صغير كما يقول العالم الفرنسي بوفون ، أو لانفجار الشمس انفجارًا تطاير معه جزء كبير منها بسبب قوة الطرد المركزية فيها كما افترض العالم الفرنسي الشهير لابلاس، أو نتيجة لمد عظيم في جسم الشمس بفعل الجاذبية عندما اقترب منها نجم آخر كبير كما افترضه جيمس جينس، وغيرها من النظريات والفرضيات .

ومع أنَّ تلك النظريات مجرد فروض قد تُثبت الأبحاث صحتها وخطأها إلا أنَّ كثيرًا من علمائنا قد أخذوها على أنها قضايا مُسلمة، ففي حين سلَّم بها علماء المسلمين أثبت علماء الغرب أنفسهم خطأها، فقد وجدوا أنَّ من القرائن التي تدل على أنَّ الشمس لم تكن أمًّا للكواكب السيَّارة؛ لأن مادتها يغلب عليها غاز الايدروجين أو غاز الهيليوم، في حين يتكون الجزء الأكبر من الأرض من مواد معدنية ثقيلة مثل الحديد والمغنسيوم وغيرها، ومعنى هذا انَّ الأرض وأمثالها أجرام ذات طابع خاص في مادته يختلف كثيرًا عن طابع النجوم [١] .

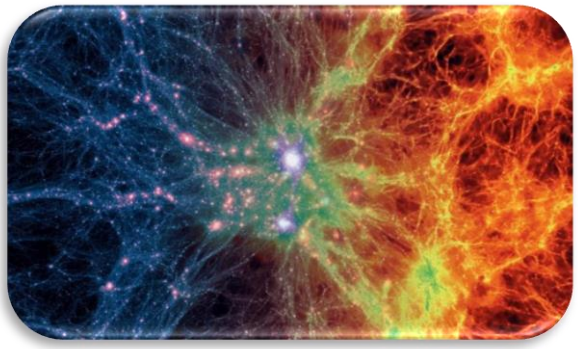

وممن قال بهذه الفروض من علماء الإسلام: الإمام القاسمي[٢] (ت ١٣٣٢هـ)، والشيخ طنطاوي جوهري[٣] (ت ١٣٥٨هـ)، والشيخ المراغي[٤] (ت ١٣٧١هـ)، وتابعهم على هذا الرأي الدكتور الغمراوي[٥] .

كما أنه قد وجدت نظرية أخرى لاقت قبولًا بين علماء العصر لتفسير نشأة الكون، وهي تُسمى بالانفجار الكبير أو الانفجار العظيم (the Big Bang)، والتي تقول بأنَّ الكون كان في بداية نشأته كتلة غازية عظيمة الكثافة والحرارة، ثم بتأثير الضغط الهائل المتأتي من شدة حرارتها حدث انفجار عظيم فتق الكتلة الغازية وقذف بأجزائها في كل اتجاه، فتكونت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرات.

---

(٥) تفسير القرآن والعلوم الحديثة – ص ٢٨٦ : ٢٨٧ .
(١) محاسن التأويل –للقاسمي– ج٧ ص١٩١ .
(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم – لطنطاوي جوهري– ج١٠ ص١٩٩ .
(٣) تفسير المراغي –للمراغي – ج١٧ ص٢٤ .
(٥) الإسلام في عصر العلم – للدكتور/ محمد أحمد الغمراوي – ص ٢٢٨ : ٢٢٩ .

إنَّ هذه النظرية أصبحت لدى علماء الفلك والفيزياء هي النظرية السائدة المُسلم بها إلى درجة أنها تكاد تكون من قوتها العلمية – في نظر العلماء – قطعية، وأول من وضع هذه النظرية العلمية هو العالِم البلجيكي جورج لومتر في سنة ١٩٢٧م، ثم احتضنها فلكيون وفيزيائيون آخرون جاءوا من بعده وعملوا على تطويرها [١] .

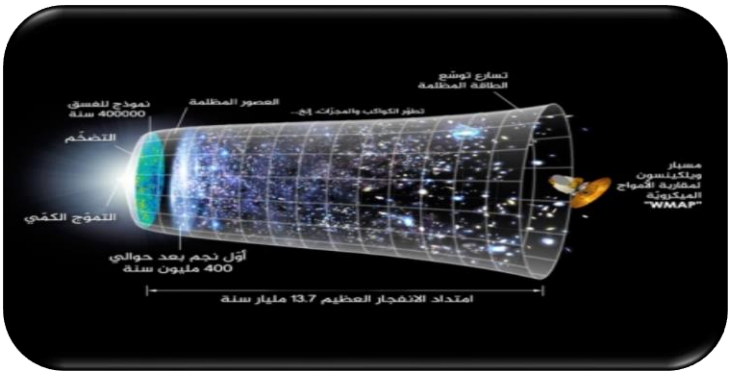

مراحل تطور الانفجار الكوني – وفقا لنظرية الانفجار الأعظم – وهنا الثلاثة عشر مليار سنة الأولى، مسار الزمن من اليسار إلى اليمين ، ويظهر إلى اليسار بالأزرق وقت إشعاع الخلفية الميكروني الكوني وبعده بنحو ٥٠٠ مليون سنة تبدأ النجوم في الظهور وتضيئ الكون

كما أيَّد هذه النظرية العلمية عدد من علماء المسلمين المتخصصين في مجال الفيزياء والفلك، حتى إن بعض علماء المسلمين ذكروا " أنَّ هذه النظرية ارتقت إلى مستوى الحقيقة العلمية " [٢]، واستطاع العلم الحديث من جمع عدة أدلة

(٧) لمزيد من المعلومات حول نظرية الانفجار العظيم يُنظر:

- موجز تاريخ الكون "من الانفجار الأعظم إلى الاستنساخ البشري" – د/ هاني رزق – الناشر: دار الفكر ، دمشق /سوريا – الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) – ص ٢٩ : ٤٩ .
- الإيمان والتقدم العلمي – د/ هاني رزق ، د/ خالص جلبي – الناشر: دار الفكر ، دمشق /سوريا – الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) – ص ٢٧ : ٣٧ .
- تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد – د. م / خالد فائق العبيدي – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان – الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) – ص١٢٠ : ١٤٢ .

(١) للكون إله – د/ صبري الدمرداش – الناشر: مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت – الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) – ص٢٥٢ .

على صحة الانفجار الأعظم منها: توسع الكون، الأشعة المتبقية من الانفجار والتي وصلتنا من الكون السحيق، وغيرها من الشواهد [١] .

يقول الدكتور زغلول النجار: " وهذه الحقائق الكونية الكبرى، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت نظرية فلكية باسم " نظرية الانفجار العظيم"، وهذه النظرية هي الأكثر قبولًا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة [٢]، وذلك بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [٣] .

يقول الشيخ الشعراوي: " لقد عُرض معنى هذه الآية في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن في السعودية على الدكتور/ الفريد كرونر من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا، وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح : مستحيل مستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذُكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنًا، إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات، وباستخدام وسائل علمية متقدمة جدا، وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النووية، والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعمائة سنة [٤] .

وفي الجانب الآخر هناك بعض العلماء من نقض هذه النظرية كلية، أو بعض أجزاءها منهم المهندس عبد الدايم الكحيل فهو لم يرفض صحة النظرية إلا أنه رفض أن يُطلق عليها اسم الانفجار الكبير معللا ذلك بقوله : " إن القرآن يسمي بداية نشوء الكون بالرتق ﴿رَتْقًا﴾، وهذه الكلمة فيها النظام والدقة، والرتق هو تركيب جزء على جزء ليصبحا جزءًا واحدًا، وبالفعل أجزاء الكون كانت متراكبة على بعضها وبكثافة عالية فلا وجود للفراغ، لذلك كلمة (الرَّتْق) هي الكلمة الأنسب لوصف بداية الكون من الناحية اللُّغوية والعلمية، أي أنَّ أجزاء الكون كانت ملتحمة ببعضها وتشكل مادة متجانسة ثقيلة جدًا جدًا.

ثم إنَّ العلم يُسمِّي لحظة انفصال هذه الأجزاء بالانفجار، وهذه تسمية خاطئة فلا يمكن للانفجار أن يكون منظماً أبدًا، بينما انفصال أجزاء الكون وتباعدها عن

---

(٢) تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد – د. م / خالد فائق العبيدي – ص١٢٢ : ١٢٣ ، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم – د/ زغلول النجار – الناشر: مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة – الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) – ج٢ ص١١٠ : ١١١ .

(٣) نفس المرجع السابق – ج٢ ص١١٤ .

(٤) سورة الأنبياء ، آية رقم : ٣٠ .

(٢) الأدلة المادية على وجود الله – لمحمد متولي الشعراوي – كتاب اليوم ، يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم – طبعة (١٩٨٩م) – العدد : ٢٩٦ – ص ٩٣: ٩٤ .

بعضها يتم بنظام شديد الدقة، حتى إننا نجد أنَّ النجم في السماء لو انحرف عن مساره قليلاً لأدى ذلك إلى انهيار البناء الكوني، فهل هذا انفجار؟ أم نظام؟ لذلك نجد القرآن يسمي هذه العملية بالفتق: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ونحن نعلم أنَّ كلمة (فَتَقَ) تحمل معنى النظام والدقة، فالكتلة الابتدائية في الكون كانت منظَّمة وليست عشوائية كما يصفها العلماء " [١] .

كما ذكر الباحث اللبناني هشام طالب: أنَّ عدد من علماء أمريكا في صيف ٢٠٠٤م اعربوا عن اعتقادهم بأنَّ الكون نشأ بهدوء ولم ينشأ بانفجار، وبيَّن أنَّ الفتق انشطار – أي انشقاق – وليس انفجار، كما أنه ذكر شبهات حول نظرية الانفجار الكبير [٢] .

فمشكلة هذه النظرية أنها لا تقول لنا من أين جاءت الكتلة الأولية؟ ومَن الذي أحدث الانفجار؟ وكيف يمكن لانفجار عشوائي أن يخلق كونًا منظمًا بهذه الدقة الفائقة؟ وماذا حصل قبل ذلك الانفجار، ولذلك استأنس علماؤنا بهذه النظرية على الرغم من عيوبها؛ لأنها أفضل الموجود [٣] .

وهكذا تتجلى عظمة الإعجاز الفلكي لكتاب الله، فتجد الآية مناسبة لكل زمان ومكان ولكل عصر من العصور، وهذا مالا نجده في العلم الحديث، فإنك تجد النظرية العلمية اليوم لها شكل، وبعد سنة مثلاً يأتي من يطورها ثم بعد فترة تجد من ينتقدها ويعِّدل فيها... وهكذا.

وبعد عرض تفسير الإمام **الشعراوي** وكذا المفسرين لهذه الآية الكونية الكريمة، وذكر ما توصل إليه العلم الحديث في خلق الكون يتضح لنا :

١) أن الإمام **الشعراوي** لخص أقوال المفسرين ولم يرجح فضيلته بينها واكتفى بقوله " أنَّ القولين لا يمنع أحدُهما الأخر " .

٢) تباينت آراء العلماء حول هذه الآية الكريمة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ ﴾، ومحل الخلاف بينهم هو المراد بالرؤية في الآية هل هي على الحقيقة (أي بصرية) أم للعلم .

---

(٤) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم – آيات الله في السماء . **نقلا عن موقع المهندس الكحيل :** www.kaheel7.com
ورابط الموقع هو :
http://kaheel7.com/pdetails.php?id=378&ft=2
وانظر أيضًا: أسرار الكون بين العلم والقرآن – عبد الدائم الكحيل – بدون ذكر دار نشر – الطبعة الأولى (١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م) – ص٢٠ وما بعدها .

(١) بناء الكون ومصير الإنسان - هشام طالب – ص ٢١١ : ٢٢٠ ، ٢٣٢ : ٢٣٤ .

(٢) تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد – د. م / خالد فائق العبيدي – ص١٢١ بتصرف يسير .

٣) ما توصل إليه العلم الحديث من نظرية " الانفجار الكبير " فبالرغم من أنها أصبحت حتمية – كما يقول بعض العلماء – بما شُوهد من القرائن والشواهد العلمية إلا أنها ما زالت محل جدل حول صحتها أو عدم صحتها، خاصة بعدما كُشف مؤخرًا أنَّ نشأة الكون تم بهدوء وليس بانفجار، كما أنَّ الانفجار لا يمكن أن يكون منظمًا أبدًا، بينما انفصال أجزاء الكون وتباعدها عن بعضها يتم بنظام شديد الدقة .

ويرى الباحث أنَّ هذه الآية الكريمة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1] تُحدد أنَّ السماوات والأرض كانتا موجودتان بالفعل ووجودهما كان على هيئة معينة وهي الرتق، ثم انتقلت إلى هيئة أخرى وهي الفتق فالآية الكريمة تصف مرحلتين من مراحل التكوين والله تعالى أعلى وأعلم .

فهذه النظرية أو غيرها لو تؤصل لأصل الوجود المادي للكون، فهو أمر غيبي لا يمكن للعلم أن يصل إليه، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾[2]، هذا وإن كانت تعطينا اللبنات الأولى لهذا الكون إلا أنها لا تعدوا أنْ تكون تفسيرًا لآية سورة الأنبياء فحسب، فيبقى للكون أسرار أودعها الله تعالى في كتابه الكريم، ولا يعلمها إلا خالق هذا الكون قل جل وعلا: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[3] .

المطلب الثاني

آيات تتحدث عن أحوال الأرض وصفاتها

تحدث القرآن الكريم عن عدد من أحوال وصفات للأرض بصياغة لطيفة بديعة، بالغة الدقة والشمول والإحكام، فالمستقرئ لآيات القرآن الكريم يجد أنه تحدث عن: تكور كل من الليل والنهار على الآخر، وولوجه فيه وانسلاخه منه،

---

(٣) سورة الأنبياء ، آية رقم : ٣٠ .
(١) سورة الكهف ، آية رقم : ٥١ .
(٢) سورة الفرقان ، آية رقم : ٦ .

وعن مد الأرض وبسطها، ودحوها وطحوها، وتسطيحها وذلولها، يقول الإمام ابن القيم: " إذا نظرنا إلى الارض وَكَيف خُلقت رَأَيْتهَا من أعظم آيَات فاطرها وبديعها خلقهَا سُبْحَانَهُ فراشًا ومهادًا وذللها لِعِبَادِهِ وَجعل فِيهِ أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وَجعل فِيهَا السبل لينتقلوا فِيهَا فِي حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فَجَعلهَا أوتادا تحفظها لِئَلَّا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فَمدَّهَا وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وَجعلهَا كِفاتا للأحياء تضمُّهم على ظهرهَا مَا داموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم فِي بَطنهَا إِذا مَاتُوا فظهرها وَطن للأحياء وبطنها وَطن للأموات، وَقد أكثر تَعَالَى من ذكر الأَرض فِي كِتَابه ودعا عباده إِلَى النّظر إليها والتفكر فِي خلقهَا " [(١)]، وفيما يلي بيان بعض من أحوال وصفات الأرض:

- **آيات دحو الأرض:**

ومن الصفات التي تمثل تشكيل الأرض كما في القرآن الكريم كونها مدحوة، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾[(٢)]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾[(٣)].

يقول الإمام **الشعراوي:** " يتحدث الحق عن آية الأرض ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد آية السماء ﴿دَحَىٰهَآ ﴾ بسطها وأوسعها أو جعلها على شكل الدحية لتكون صالحة لمعايش الخلق، لكن ماذا تعني البعدية هنا ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أهي بعدية حدث ؟ أم بعدية ذِكْر ؟ بعدية الحدث أن يكون الحدث الأول وقع في زمن سابق على الحدث الآخر، لكن بعدية الذكر لا تقتضي أنْ يكون الأول حدث في زمن قبل الآخر .

إذن سبق الأول في مجرد الذكر لا في وقت الحدث، وهذا يقال في مقام الامتنان، فكأنَّ الحق سبحانه يلفتنا أولًا إلى آياته في القمة وهي السماء ثم آياته في الأرض، وهذا لا يعني أنَّ حدث الأرض أتى بعد حدث السماء، والحق سبحانه قال في تفصيل ذلك: ﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة – لابن القيم (٧٥١هـ) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية – تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد – الناشر: دار عالم الفوائد ، جدة – الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ) – ج١ ص٥٦٩ : ٥٧٠ .

(٢) سورة النازعات ، آية رقم : ٣٠ .

(٣) سورة الشمس ، آية رقم : ٦ .

لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [1] .

وهذا يدلنا على أنَّ السماء خُلقت بعد الأرض، فهي بعدها في الحدث ولكن ذُكرت قبلها، أو أنَّ هناك فرقًا بين خَلْق جِرْم الشيء وحقيقته وبين إعداده لأداء مهمته، فكأن الحق سبحانه خلق جِرْم الأرض ثم خلق جِرْم السماء، ثم عاد إلى الأرض فدحاها وبسطها ومهَّدها لمعيشة الخلق عليها بدليل قوله تعالى بعدها ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [2] لاستبقاء حركة الحياة عليها [3] .

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ أي بسطها من كل جانب، ومثلها ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ فأقسم الحق ﷻ بالأرض وبالذي بسطها وخلقها، والطحو والدَّحو : البسط .

والبسط: المدّ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ [4] وليس معنى هذا أنَّ الأرض كالبساط أمام الإنسان .

فالثابت كحقيقة كونية أنَّ الأرض كروية، والفهم الصحيح في مدلول الحقيقة القرآنية ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أننا كلما وقفنا في مكان نجد أرضًا، أي أنَّ الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

فالحق سبحانه قد مد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان في أي اتجاه يجد أرضًا، ولا يتأتَّى هذا إلا إذا كانت الأرض كروية، فالمد هو الامتداد الطبيعي لما نسير عليه من أي مكان في الأرض، فلو كانت الأرض مربعة أو مستطيلة أو مثلثة لوجدنا لها نهاية وحافة، ولسقطنا مِنْ عليها لو وصلنا إلى آخر حافتها، لكن لو سرنا في خط مستقيم فلسوف نعود إلى النقطة التي بدأنها منها، ذلك أنَّ منحنى الأرض مصنوع بدقة شديدة قد لا تدرك العين مقدار الانحناء فيه ويبدو مستقيمًا .

---

(١) سورة فصلت ، الآيات من ٩ : ١٢ .
(٢) سورة النازعات ، آية رقم : ٣١ .
(٣) تفسير الشعراوي – ج٢٧ ص١٦٧٦١ : ١٦٧٦٢ .
(٤) سورة ق ، آية رقم : ٧ .

لذلك أقسم الحق سبحانه فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾ [١]؛ لأنه سبحانه بديع السماوات والأرض[٢] .

أقوال المفسرين في معنى الدحو والطحو:

اتفق جمهور المفسرين [٣] على أنَّ قوله تعالى: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ بمعنى بسطها، وهي مفسرة بقوله ﷻ: ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ ﴾ [٤] .

وعن خلق الأرض قبل السماء يقول الإمام ابن كثير: " أنَّ الأرض خُلقت قبل خلق السماء ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير [٥]، وعن ابن عباس ﷺ دحاها ودحيها أنْ أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام " [٦] .

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ أي: بسط الأرض ومهدها وجعلها مفلطحة كالبيضة، بعد خلق السماء، فإنها كانت مخلوقة غير مدحوة قبل خلق السماء، ثم دُحيت بعد خلق السماء، فدل هذا على أنَّ الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء، وهي دخان فخلقها وبناها، ثم دحا الأرض بعد ذلك ودحو الأرض: بسطها [٧] .

وقوله ﷻ: ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ أي: أنَّ الله تعالى أعد أثناء دحو الأرض وسائل الحياة والعيش بأنْ فجّر من الأرض الماء بالأنهار والعيون والينابيع، وأنبت فيها المراعي والأعشاب والحشائش للدواب، وجعل فيها النبات

---

(٥) سورة الشمس ، الآيتان ٥ : ٦ .
(٦) نفس المرجع السابق – ج٢٧ ص ١٧٠٥١ : ١٧٠٥٢ .
(١) جامع البيان – للطبري – ج٢٤ ص٩٤ : ٩٥ ، الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي – ج١٩ ص٢٠٤ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل – للبيضاوي – ج٥ ص٢٨٤ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور – للسيوطي– ج١٥ ص٢٣٤ .
(٢) سورة فصلت ، الآيات من ٩ : ١٢ .
(٣) **يقصد :** الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) . **يُنظر:** جامع البيان – ج٢٤ ص٩٢ .
(٤) تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – ج٨ ص٣١٨ .
(٥) التفسير الوسيط – للدكتور: وهبة بن مصطفى الزحيلي – الناشر: دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ) – ج٣ ص ٢٨١٨ .

لبني آدم كالحبوب والثمار، وجعل الجبال كالأوتاد للأرض، لئلا تتحرك بأهلها [١] .

ويـرى الإمـام ابن عاشـور أنَّ قوله تعالى: ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ ليسـت بَيَـانًا لقوله سبحـانه: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾؛ وذلك لاختلاف معنى الفعلين، بل هي بدل اشتمال منها؛ لأنَّ المقصد من دحوها بمقتضى ما يُكمِّلُ تيسير الانتفاع بها [٢] .

وأما عن طحو الأرض فقد قال عامة المفسرين طحاها مثل دحاها قال مجاهد وغيره: طحاها ودحاها: واحدٌ، أي بسطها من كل جانب، والطحو: البسط، وعن ابن عباس ﷺ وما طحاها: أي خلق فيها، وقيل: قسمها، وقال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم طحاها أي: بسطها، وهذا أشهر الأقوال وعليه أكثر المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة كما ذكر الإمام ابن كثير [٣] .

رأي العلم الحديث في دحو الأرض وطحوها:

لقد توصل العلم إلى حقيقة شكل الأرض وهي أنها مستديرة كُروية الشكل، وذلك بعد ما كان هناك سجال بين مؤيد ومعارض لهذه الفكرة، حتى جاء عصر (نيوتن) [٤] والذي توقع أنَّ الأرض كرة منبعجة عند خط الاستواء، ثم جاء رائد الفضاء الروسي (جاجارين) [٥] حيث قام بتصوير الأرض وهو في الفضاء الخارجي عام ١٩٦١م ووجدها كرة تسبح في الفضاء [٦] .

---

(٦) التفسير الوسيط – للزحيلي – ج٣ ص ٢٨١٩ .

(٧) التحرير والتنوير – لابن عاشور– ج٣٠ ص٨٧ .

(١) تفسير مجاهد ، لأبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت ١٠٤هـ) – تحقيق: د/محمد عبد السلام أبو النيل – الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر – الطبعة الأولى (١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م) – ص٧٣٢ ، جامع البيان – للطبري – ج٢٤ ص٤٣٨ ، الجامع لأحكام القرآن– للقرطبي – ج٢٠ ص٧٤ ، تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – ج٨ ص٣٩٩ ، فتح القدير – للشوكاني – ج٥ ص٥٤٦ .

(٢) هو السير إسحاق نيوتن: عالم إنجليزي يُعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات عبر العصور وأحد رموز الثورة العلمية، صاغ نيوتن قوانين الحركة وقانون الجذب العام التي سيطرت على رؤية العلماء للكون المادي للقرون الثلاثة التالية، وله العديد من التجارب والنظريات، توفي في شهر مارس عام ١٧٢٧م . **نقلًا عن:** موسوعة مشاهير العالم – ج ج – باكسون – ج١ ص٣٩ : ٤٨ .

(٣) هو: يوري ألكسيافيتش جاجارين رائد فضاء سوفيتي، ويعتبر جاجارين أول إنسان يتمكن من الطيران إلى الفضاء الخارجي والدوران حول الأرض في 12 أبريل 1961 على متن مركبة الفضاء السوفيتية (فوستوك١) توفي في حادث تحطم طائرة عام ١٩٦٨م . **انظر:** الموسوعة العربية العالمية – ج٨ ص١٠٨ .

(٤) الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم – د/ فهد خليل زايد – ص١٠ : ١١ .

وتم المسح الشامل بالأقمار الصناعية لكوكب الأرض فاطمأنت القلوب لكرويتها، بل هي أشبه ما تكون بثمرة الشمام أي مفرطحة، وأطول دائرة حولها تلك التي تمر بخط الاستواء، وأقصرها هي التي تمر بالقطبين الشمالي والجنوبي، ومع ذلك فالفرق بينهما لا يعدو ٨٤ ميلًا [١] .

فهذه الآية الكريمة ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ آية معجزة؛ إذْ أعطت التعبير الصحيح تمامًا لحال الأرض، حتى وإن كنا نطلق عليها بعموم اللفظ (الأرض كروية)، ولكن بخصوص اللفظ وبالتالي العلمي الصحيح أنَّ (الأرض بيضوية) [٢] .

وأما الآية الثانية فهي معجزة عظيمة أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ فقد أيد القرآن الكريم حقيقة علمية وهي أنَّ أصل الماء من الأرض، وهذا واضح تمامًا من قوله جل وعلا: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا﴾

فقد توصل العلم إلى أنَّ كلًا من ماء الأرض والغلاف الغازي إنما يخرج من جوف الأرض، كما ثبت أنَّ ماء
الأرض والذي يمثل أكثر من ٧٠% من مساحتها قد أُخرج من داخل الأرض عن طريق الأنشطة البركانية المختلفة، والمصاحبة لتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض [٣] .

ومن خلال النظر في كلام الإمام **الشعراوي** وما توصل إليه العلم في دحو الأرض وطحوها يتبين أنَّ كل منهما قد توافقا على أنَّ المراد من الدحو والطحو: المد والبسط وكذا تكوير الأرض، فالإمام **الشعراوي** يرتكز فيما توصل إليه من المعاني للآيات الكريمة على ركيزتين هما صُلب التفسير: أحدهما: اللغة، والثاني: التفسير بالمأثور من باب تفسير القرآن بالقرآن .

أما الأول: عن اللغة فقد ذكر الإمام **الشعراوي** في معنى الدَّحو: البسط والمد لتكون صالحة لمعايش الخلق، أما الطَّحْو كالدَّحْو وهو البَسْطُ .

---

(٥) عالم الأفلاك – د/ إمام إبراهيم أحمد – الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، سلسلة المكتبة الثقافية رقم (٦٣) – ص٤٢ : ٤٤ ، الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم – ص١١ .

(٦) الموسوعة الكونية الكبرى – د/ ماهر أحمد الصوفي – الناشر: المكتبة العصرية (صيدا ، بيروت) – الطبعة الأولى (٢٠٠٧م/١٤٢٨ه) – ج٥ ص ٢٢١.

(١) تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم – د/ زغلول النجار – ج٤ ص٣٠٩ : ٣١٠ ، الموسوعة الكونية الكبرى – د/ ماهر أحمد الصوفي – ج٥ ص ٢٢١ .

الشكل الأول : يبيّن حالة الأرض في بداية أمرها ، قبل ثلاثمائة مليون سنة

الشكل الثاني : يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها وقد بدأت هذه العملية قبل خمسين مليون سنة

الشكل الثالث : يبين حالة الأرض بعد أن استقر أمرها ، قبل مليون سنة

فقد جاء في معنى الدَّحو أنَّ: " الدال والحاء والواو أصلٌ واحدٌ يدل على بسطٍ وتمهيدٍ، يقال: دحا الله الأرض يدحوها دحوًا، إذا بسطها، ويقال دحا المطر الحصى عن وجه الأرض، وهذا لأنه إذا كان كذا فقد مهَّد الأرض، ومن الباب أُدْحِيُّ النعامِ: الموضع الذي يُفَرِّخُ فيهِ، أُفْعُولٌ مِن دَحَوْتُ؛ لأنه يدحوه برجله، ثم يبيض فيه. وليس للنعامة عُشٌّ" (١) .

وذكر صاحب اللسان: " الدَّحوُ: البسطُ، يقال دحا الأرض يدحوها دحوًا: بسطها، والأُدْحِيُّ والإِدْحِيُّ والأُدْحِيَّة والإِدْحِيَّة والأُدْحُوَّة: مَبِيض النَّعامِ في الرَّملِ؛ لأن النعامة تدحوه برجلَها ثم تبيض فيه، ودَحَا السيلُ فيه بالبطحاءِ أَي رمى وألقى، يقال هو يَدْحُو بالحجرِ بيده أي يرمي بِه ويدفعُهُ، قال: والدَّاحي الذي يدحُو الحجر بيدهِ، وقد دَحَا بِه يدحُو دحوًا ودحى يدحَى دحْيًا، ودحا المطرُ الحصى عن وجه الأرض دحْوًا: نزعه، والمطر الدَّاحِي يدْحى الحصى عن وجهِ الأرض: ينزِعُه" (٢) .

أما في معنى الطَّحو عند أهل اللغة فـ " الطَّحْوُ: شِبْهُ الدَّحْوِ، وهو البَسْطُ وفيه لغتان: طحا يَطْحُو وطَحَى يَطْحَى " (٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾

---

(٢) معجم مقاييس اللغة – لابن فارس – ج٢ ص٣٣٣ .

(٣) لسان العرب – لابن منظور – ج١٤ ص٢٥١ : ٢٥٢ .

(١) كتاب العين – لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي – تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي – الناشر: دار ومكتبة الهلال – بدون رقم وتاريخ الطبعة – ج٣ ص٢٧٧ .

(١) معناهُ ومن دحاها فأبدل الطاء من الدال، ودحاها وسَّعها، والقومُ يَطْحَى بعضُهم بعضًا أي يدفع (٢)، وقال الفرّاء(٣): طحاها ودحاها وَاحِد (٤) .

وأما الثاني: عن التفسير بالمأثور فقد ذكر الإمام **الشعراوي** أنَّ قوله سبحانه ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ مفُسر بقوله بعدها ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾، ولذلك نجده يفسر الآية الكريمة بقوله : " دحاها وبسطها ومهَّدها لمعيشة الخلق عليها بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ لاستبقاء حركة الحياة عليها " (٥)، وهو قول جمهور المفسرين، بينما يرى الإمام ابن عاشور " أنَّ جملة ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿دَحَىٰهَآ ﴾؛ لأن المقصد من دحوها بمقتضى ما يكمل تيسير الانتفاع بها، ولا يصح جعل جملة ﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴾ بيانا لجملة ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ لاختلاف معنى الفعلين " (٦) .

ويرى الباحث أنَّ تفسير الإمام ابن عاشور هذا يُمكن أنْ يُحمل عليه المعاني الحديثة لقوله ﷻ ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾؛ لأنَّ ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ معنى يختلف عن معنى الإخراج فهو معنى يشمل جميع ما ذكره العلماء، أما الإخراج فهو جزء من هذا الدَّحو، فقد استنبط أهل التفسير العلمي من قوله ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ عدة معاني ذكرتها كتب اللغة كـ " التكوير والشكل المستدير الذي يُطابق ما تؤكده الصور التي صورتها آلات التصوير أثناء رحلات الأقمار الصناعية في الفضاء مستدلين بما

---

(٢) سورة الشمس ، آية رقم : ٦ .

(٣) لسان العرب – لابن منظور – ج١٥ ص٤ : ٥ .

(٤) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي، المعروف بالفراء أبو زكريا: أخذ عن أبي الحسن الكسائي، وكان هو والأحمر أشهر أصحاب الكسائي، وكانا أعلم الكوفيين بالنحو من بعده، له مصنفات كثيرة مشهورة في النحو واللغة ومعاني القرآن قال أبو بكر ابن الأنباري: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس إذ انتهت العلوم إليهما توفي في طريق مكة سنة سبع ومائتين . **يُنظر:** معجم الأدباء – لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) – تحقيق: إحسان عباس – الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) – ج٦ ص٢٨١٢ .

(٥) تهذيب اللغة – للأزهري – ج٥ ص١١٩ .

(٦) تفسير الشعراوي – ج٢٧ ص ١٦٧٦٢ .

(٧) التحرير والتنوير – ج٣٠ ص٨٧ .

فهموه من المعاجم اللُّغوية فهم يقولون إنَّ كلمة ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ تؤدي معنى أنه جعلها كالدحية أي كالبيضة؛ لأنَّ الأُدْحُوَّة معناها بيضة النعام أو مكان بيض النعام ويكون عادة مستدير الشكل، ولا شك أنَّ هذا يُطابق شكل الأرض الحقيقي [١]، وبهذا فإنَّ لفظ دحا يدل على شيئين هما البسط مع الاتساع والتكوير في التكوين، وهذه روعة في التعبير عن أنَّ الأرض التي نراها أمامنا في الظاهر مبسوطة فسيحة الأرجاء، وهي في واقع الأمر مستديرة كالبيضة [٢] ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [٣] .

وللدَّحو معنى أخر ذكرته كتب اللغة، وهو الدَّفع والرمي، يُقال دحا الصبي الكرة أي رماها ودفعها، كما يقال دحا المطر الحصى عن وجه الأرض أي نزعه، وبهذا المعنى اللُّغوي يمكن أيضًا أنْ تعبر كلمة ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ بمعنى دفعها في مدارها حول الشمس، وهذه حقيقة. أو أزاحها بنفس مفهوم الكلمة الإنكليزية Drift ما ينطبق تمامًا على حقيقة علمية أخرى تُدعى إزاحة القارات Drifting Continents التي نادى بها العلماء في عام ١٩١٥ حيث أعلن واجنر بأن القارات تتباعد بعضها عن بعض وأن انفصال القارات عن طريق إزاحتها بدأ بشكل كسور تؤيده مثلاً التعرجات المتشابهة على الجانبين المتقابلين من قارة أفريقيا وقارة أمريكيا الجنوبية. ولقد ساهمت كل العلوم في إثبات صحة إزاحة القارات فلقد ثبت أن قيعان المحيطات حديثة العهد جداً لا يتعدى عمرها على الأكثر ٢٠٠ مليون سنة وأن نوعي الصخور المتماثلة في الشواطئ المتقابلة فضلاً عن تماثل الأسماك والنباتات مما دفع العلماء إلى القول بأنَّ مختلف قارات العالم كانت متصلة بعضها ببعض منذ ثلاثمائة مليون سنة ثم حدث الانشقاق والانفصال بالإزاحة التدريجية [٤].

وهكذا استعمل القرآن الكريم هذيْن اللفظين (دحا ، طحا) ليشير إلى معانٍ كثيرة (معنى مدّ وبسط وكوَّر وأزاح ودفع)، ويشير إلى روعة التعبير القرآني بالأسلوب الإلهي الحكيم للدلالة على ما يريد الإشارة إليه من أسرار الطبيعة، وبأسلوب يطابق الحقيقة الكونية، مما يمثل إعجازًا بيانيًا وعلميًا رائعًا، وموضوع

---

(٨) ينظر: القرآن وإعجازه العلمي - لمحمد إسماعيل إبراهيم – ص٨٤ ، الإعجاز العلمي في القرآن – د/ السيد الجميلي – الناشر: دار ومكتبة الهلال ، بيروت / لبنان – الطبعة الثانية (١٩٩٢م) – ص٣٥ .

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم – د/ منصور محمد حسب النبي – الناشر: دار الفكر العربي ، القاهرة – الطبعة الثانية (١٩٩١م) – ص٣١٨ .

(٢) سورة النمل ، من آيه رقم : ٨٨ .

(٣) الإسلام يتحدى – لوحيد الدين خان ، تعريب: د/ ظفر الإسلام خان ، مراجعة وتحقيق: د/ عبد الصبور شاهين – الناشر: مكتبة الرسالة – بدون ذكر رقم الطبعة – ص١٩٨ ، الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم – د/ منصور محمد حسب النبي – ص٣١٨ .

كروية الأرض تناولته عدد من آيات القرآن الكريم، وفيما يلي الحديث عن الآيات الكريمة التي تناولت مد الأرض ودلالتها على كرويتها .

الخاتمة:

القرآن الكريم معجزة القرون؛ فكان لابد أنْ يكشف الراسخون في العلم وجه الإعجاز القرآني المتوائم مع المنجزات العلمية في العصر الحاضر، وقد تنبه المفسرون المعاصرون إلى أنَّ الإلمام بمنجزات العلم في العصر الحديث أمر هام للمفسر، وكان مِنْ هؤلاء العلماء الأجلاء فضيلة العالِم الجليل محمد متولي الشعراوي الذي زخر تفسيره بربط آيات القرآن الكريم الكونية بمعطيات العلم الحديث، ومن ذلك تفسيره لهذه الآية الكونية " الأرض" .

فقد أشار القرآن الكريم في عدد من آياته إلى خلق الأرض وطبيعتها، وأحوالها وصفاتها، وتأتي هذه الإشارات في مقام الاستدلال على القدرة الإلهية التي لا حدود لها، وعلى العلم والحكمة البالغين في إبداع هذا الكون.

المصادر والمراجع:

١) الإسلام في عصر العلم – للدكتور/ محمد أحمد الغمراوي – إعداد: د/ أحمد عبد السلام الكرداني –الناشر: مطبعة السعادة ، القاهرة – الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

٢) الإسلام في عصر العلم – للدكتور/ محمد أحمد الغمراوي – إعداد: د/ أحمد عبد السلام الكرداني –الناشر: مطبعة السعادة ، القاهرة – الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

٣) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق – للدكتور/ كارم السيد غنيم – الناشر: دار الفكر العربي (القاهرة) – الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – للشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) – الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع (بيروت ، لبنان) – طبعة (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ مـ) .

٥) الآيات الكونية والعلوم الحديثة "الفيزياء والرياضيات" – د/ عبد المنعم الشرقاوي – الناشر: دار الزهراء للنشر – طبعة (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) .

٦) التحرير والتنوير – لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ) – الناشر: الدار التونسية للنشر (تونس) – طبعة (١٩٨٤ هـ) .

٧) تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم – د/ زغلول النجار – الناشر: مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة – الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) .
٨) تفسير الشعراوي – لمحمد متولي الشعراوي – الناشر: طبعة أخبار اليوم – طبعة ١٩٩١م .
٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – للطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) – تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي – الناشر: دار هجر للطباعة والنشر– الطبعة الأولى (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) .
١٠) الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ) – تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش – الناشر: دار الكتب المصرية (القاهرة) – الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م) .
١١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، المشتمل على عجائب المكنونات وغرائب الآيات الباهرات – للشيخ/طنطاوي جوهري (ت ١٣٥٨هـ) – الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الثانية (١٣٥٠هـ) .
١٢) ذيل الصواعق لمحو الأباطيل والمخارق – لحمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري (ت ١٤١٣هـ) – بدون دار للنشر – طبعة (١٣٩٠هـ) .
١٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) – تحقيق: علي عبد الباري عطية – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان – الطبعة الأولى (١٤١٥هـ) .
١٤) فتح القدير – لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ) – اعتنى به وراجه أصوله: يوسف الغُوش – الناشر: دار المعرفة، بيروت / لبنان – الطبعة الرابعة (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
١٥) القرآن وإعجازه العلمي – لمحمد إسماعيل إبراهيم – الناشر: دار الفكر العربي – بدون ذكر رقم وتاريخ الطبعة .
١٦) القرآن والطب الحديث – د/أحمد شوقي الفنجري – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – طبعة سنة (٢٠٠٠م) .
١٧) للكون إله – د/ صبري الدمرداش – الناشر: مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت – الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) .
١٨) محاسن التأويل – لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) – تحقيق: محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت/ لبنان – الطبعة الأولى (١٤١٨هـ) .

١٩) محاسن التأويل – لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) – تحقيق: محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت/ لبنان – الطبعة الأولى (١٤١٨هـ) .
٢٠) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ) – تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان – الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ) .
٢١) مختار الصحاح – لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ) – تحقيق: يوسف الشيخ محمد – الناشر: المكتبة العصرية (بيروت ، صيدا) – الطبعة الخامسة (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) .
٢٢) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة – د/زغلول راغب محمد النجار – الناشر: دار المعرفة (بيروت ، لبنان) – الطبعة الأولى (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) .
٢٣) معجم مقاييس اللغة – لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – الناشر: دار الفكر – طبعة (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) .
٢٤) مفاتيح الغيب – للرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) – الناشر: دار إحياء التراث العربي (بيروت) – الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ) .
٢٥) مِن آيات الإعجاز العلمي " السماء في القرآن الكريم" – د/زغلول النجار – الناشر: دار المعرفة (بيروت ، لبنان) – الطبعة الرابعة (١٤٢٨ه/٢٠٠٧م) .
٢٦) مناهل العرفان في علوم القرآن – لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ) – الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – الطبعة الثالثة – بدون ذكر تاريخ ورقم الطبعة .
٢٧) الموسوعة الكونية الكبرى – د/ ماهر أحمد الصوفي – الناشر: المكتبة العصرية (صيدا ، بيروت) – الطبعة الأولى (٢٠٠٧م/١٤٢٨ه) .